خواطر

مواصلة النظر فى نتاجنا

أدبنا الجديد

بقلم محمد جابر الانصارى

فلنفهم معنى النقد ..

تحدثت فى العدد الماضى عن أهمية النقد لكل حركة أدبية ناشئة ، وقلت انه لابد من نقد جدى بناء اذا أردنا أن ننتج أدبا ذا قيمة ، وان هذا النقد لابد أن يقذف عرض الحائط بالمجاملات وتأثير الصداقات والشكليات الاجتماعية وان ينفذ الى صميم العمل الادبى فيقيمه من نواحيه الايجابية والسلبية ـ أى محاسنه وعيوبه ـ دون النظر الى أى اعتبار غير مقاييس النقد الموضوعية الجادة، المستقيمة التى لا تعرف أى لون من الوان الالتواء واللف والدوران ... فقد يعذر الانسان اذا لف ودار فى حقل العلاقات الاجتماعية والتجارية وما الى ذلك من علاقات ؛ ولكن مصيبة المصائب ألا يكون صريحا وجريئا فى شئون الثقافة والعلم . فهذا المجال ان دخلته المجاملات ومظاهر الزيف والاعيب الضحك على الذقون فسد فسادا لا صلاح بعده .. ولم يعد يمت الى الثقافة والعلم بصلة .. فرجائى من القراء وجميع من سأنقد أعمالهم أن ينظروا الى هذا الامر بعين الاعتبار وأنا على استعداد لمواجهة أى اختلاف معى فى التقييم والرأى باصول النقد وقواعد العلم ، من قبل ومن بعد .

... ولنكن صريحين على الاقل ـ فى رحاب العلم القدسية .

فى هذه النقدات سأتابع نتاج شبابنا الادبى فى مجالات : النقد والابحاث والقصة والشعر فى محاولة لمعرفة قيمة ذلك النتاج ومستواه وعلى أمل أن يؤدى ذلك الى نشاط أدبى قائم على أصول راسخة بينة وحتى يشعر شبابنا ان أعمالهم معرضة من الان فصاعدا لغربلة مقص النقد والتقييم .. وكذلك لمقص اللوم والاستنكار ـ هذا طبعا اذا كان العمل الادبى خاليا من الجدية والاخلاص واحترام قواعد التأليف الاولية ..

.. وقد أعذر من أنذر !

بادرة مشجعة ..

وقبل ان أبدأ تلك النقدات بودى أن أشير الى بادرة مشجعة تستحق الترحيب برزت فى مجلة «هنا البحرين» التى تصدرها دائرة الاعلام ، الا وهى بادرة نشر انتاج أدبائنا الشبان من مقالات وقصص وقصائد بدل تلك الابحاث العقيمة التى كانت تنشرها فى السابق لبعض الاساتذة عن الشعر الجاهلى والادب فى عصر المماليك والمقامات فى عصر الاتراك وما الى ذلك من نقول مقتبسة ـ واحيانا منسوخة نسخا حرفيا ـ عن الكتب القديمة ! تلك الابحاث التى تجعل من المجلة الشهرية الثقافية الوحيدة فى البحرين متحفا لمخلفات القرائح المنطفئة التى أكل الدهر عليها وشرب ... تلك القرائح التى لا تمت بصلة الى نهضتنا الادبية والتى توجه همها لمنافسة كل ما هو بحرينى كى تطمسه وتقضى عليه حتى يخلو لها ـ وحدها ـ الجو ...

وحبذا لو تخلصت المجلة من بقايا تلك الآثار المملة وتوسعت فى نشر نماذج من الادب البحرينى الجديد الناشىء الى جانب نشرها انباء النشاطات الرسمية المتعلقة بحركة التقدم فى البلاد ، مخلصتنا بذلك من الحشو ومن المواضيع الوعظية المكررة .

اننى أكرر ترحيبى بتلك الظاهرة راجيا أن تستمر وتتوسع .. وبذلك يكون لـ «هنا البحرين» دورها الفعال فى نهضتنا الادبية والثقافية العامة .

ولننتقل الان الى استعراض النتاج الادبى الجديد بادئين بقصيدتين لعلى عبدالله خليفه . القصيدة الاولى بعنوان «الى بحار لم يعد» وقد نشرت فى «هنا البحرين» العدد ١٧١ ، والقصيدة الثانية بعنوان «أنين الصوارى» وهى منشورة فى المجلة نفسها ـ العدد ١٧٦ .

جاءت القصيدة الاولى على لسان محب ينتظر حبيبا له مع أوبة الغواصين . وقد شهدنا أولا منظر العودة وافراحها (فى ١٥ بيتا ـ من الشعر الموزون والتقليدى) ثم منظر ذلك المحب وقد أصيب باليأس والقلق لان الحبيب لم يعد من البحر مع العائدين (فى ٨ أبيات) .

وقد بذل الشاعر جهدا لا بأس به فى تصوير مشهد العودة فى المقطع الاول بحيث استطاع اعطاء الملامح الرئيسية ـ وبعض اللفتات الجانبية ـ لحادث رجوع الغواصين ، هذا الحادث الملىء بايحاءات غنية فى التراث البحرينى والفولكلور الشعبى للخليج كله . وفى المقطع الثانى وفق ـ الى حد ما ـ فى تصوير قلق المحب المنتظر الذى لم يجد من ينتظره بين العائدين ، وان كان بيتا الدعاء الاخيران :

رب ، خفف عنهمو شر البلا
رب ، هون حدة الريح الرعون
رب ، واحفظ لى حبيبى سالما
.. لفؤاد ظل مشبوب الحنين

.. وان كان هذان البيتان يفتقران الى الحرارة الشعورية ، والى قوة «الخاتمة» التى يفترض فيها أن تكون ذروة القصيدة وأوج انطلاقها .

هذا من حيث الموضوع ، أما الاسلوب فيبدو ان الشاعر غير متمكن من التعبير القوى السبك فالابيات [illegible] فى تعابيرها وتحتاج الى كثير من التنقيح حتى تستقيم من حيث سلامة التركيب وقوة الاداء ، من أمثلة ذلك :

والصبايا فى خليج الدر قد
خضن من فرط ابتهاج مستبين

فكلمة «قد» جاءت هنا لتفصل بين الشطرين وتدخل توقعا أضر بتدفق الاسلوب الشعرى . وكذلك فان عبارتى : «بما يسر الله

من الصيد الثمين» و «دعاء الشكر يعلو للمعين» من التعابير الشائعة المنتشرة في اللغة العادية بحيث يؤدى ادخال أمثالهما في الشعر الى اضعاف التأثيرات الموحية والاداء الشعرى الموجز المركز.

واذا تحدثنا عن أوجه النقص فلا يجب أن نغفل جوانب القوة ؛ من ذلك هذا البيت الذى يصور التفاعل بين القادمين والمنتظرين بين الغواصين وأهاليهم وكأن لحظة اللقاء سيمفونية تتداخل فيها الانغام المختلفة والاحاسيس المتباينة فرحة العودة في أنغامهم

وعلى «السيف» زغاريد الحنين

فقد صور الشاعر هنا هذا التناغم بين فرحة العودة من ناحية وزغاريد الحنين من ناحية أخرى ، أى أنه لخص لحظة اللقاء بأحاسيسها المتباينة فى نغم يصعد من وترين متكاملين .

ويبيت آخر تجدر الاشارة اليه :

ونساء الحى غالبن الهوى

في انتظار بان في سمت رصين

نلاحظ هنا أن الشاعر وفق فى رسم مظهر النسوة المنتظرات بدقة حسنة فهؤلاء النساء في مجتمع شرقى ، والشرق ـ حتى في أعنف اللحظات ـ لا يسمح للمرأة باظهار عواطفها .. ولكن المرأة انسان قبل كل شىء .. فالهوى يعصف بها ولكنها تغالبه كى لا يظهر . غير أن لهفة الانتظار ظاهرة بينة خلف ذلك «السمت الرصين» ، أى المظهر الجدى الهادىء الذى تتكلفه النسوة ...

بعد خوالى ستة أشهر من ظهور القصيدة السابقة ظهر علينا الشاعر بقصيدة جديدة ـ عن أجواء الغوص ذاتها ـ بعنوان «أنين الصوارى» . فلنمض قدما فى تقييم هذه القصيدة الجديدة علنا نكتشف تطورا في شعر هذا الاديب الناشىء .

تصور قصيدة «أنين الصوارى» واقع غواص هرم بائس طرد من عمله بعد أن امتصت سنون العمل قوته وشبابه فاذا به ملقى على الشاطىء ـ بعد ابحار مراكب الغوص ـ يجتر ذكرياته وآلامه .

ونلاحظ ـ أول ما نلاحظ ـ أن الشاعر هجر اسلوب النظم التقليدى وتوجه نحو الشعر الحديث (والشعر الحديث ـ وارجو أن نتذكر ذلك دائما) يعتمد على التفصيلات وينوعها ولايلغى الوزن والايقاع الموسيقي كما يتوهم البعض) .

كما نلاحظ أيضا ان القصيدة عنده أصبحت أوسع مدى من حيث اجوائها وأوسع آفاقا واضخم بناء وتركيبا ، اذ نرى هنا تجربة حياتية كاملة ـ حياة غواص بأكملها ـ تسير أمامنا ، وليس مجرد مشهد صغير كما فى القصيدة السابقة (وهذه أيضا من فضائل الشعر الحديث فهو شعر «تجارب ناضجة» وليس شعر مقطوعات غزلية أو مدحية .. الخ)

ويبدو ـ على العموم ـ ان الشاعر أحس بعجز الاساليب التقليدية عن استيعاب تجاربه فقرر هجرها باتجاه الشعر الحديث ، وربما كان هذا القرار فى صالح مستقبله الادبى كما يتبين من قصيدته الثانية .

فى هذه القصيدة نلحظ جوانب فى غاية القوة وجوانب أخرى فى غاية الضعف والقصور ، ويبدو ان الشاعر أكب على بعض المقاطع فاحسن التصوير والتعبير وتعجل فى انهاء المقاطع الاخرى فأخل فى البناء وفى استخدام الاساليب الموحية المناسبة .

فمن المقاطع الممتازة ، تصوير الشاعر للحظة القلوع بينما كان الغواص الهرم ملقى على الشاطىء :

وأنا وحدى وأحزان المساء
واصطخاب الموج فى لغو النساء
واختلاجات الوداع
وانسكاب دمعة عذراء من طفل صغير
يحتمى بالام ... عيناه نداء
وسؤال لح فى الاعماق مبحوح الرجاء
يا أبى كيف اللقاء ؟
ربما عز اللقاء .

فانظر الى هذا التصوير «الصوتى» فى المزج بين اصطخاب الموج وبين لغو النساء والى عين الطفل التى انسكبت فيها صورة النداء فاضحت «نداء» مجسدا .

ولعل ابدع شعر بحرينى يصور واقع الغواص المأساوى الدامى هذا المقطع الصغير الذى لخص المأساة فى صورة شعرية ستبقى محفورة فى تاريخنا الشعرى المعاصر :

بعد أن عاش سنى العمر مصلوب الحياة
بين أفواه تنادى ...
ومناد : هات من دينك هات !

فتصور هذا «الصليب» القاسى الدامى الذى علق عليه الغواص بين أصوات أبنائه الجائعين وبين طلبات تجار الغوص المجحفة الظالمة . اننى لا يسعنى الا أن أقدم التهنئة للشاعر الناشىء على مقطعه الرائع هذا . وثمة مقطع موفق آخر :

لقد تعود الشعراء ان يصوروا لنا ليالى الغوص المقمرة جميلة شاعرية وكأن الغواصين يعيشون فى «أمسية باريسية» .. ولكن كم هو مزيف هذا التعبير !

كيف يحس الغواص المنهك بجمال القمر وسحر البحر ؟ ان الليل بالنسبة له احلام متعبة واشباح مؤرقة فمن يعيش معذبا مجهدا لا يلتفت الى سحر الطبيعة . وكم كان الاخ على عبدالله خليفه واقعيا فى تصويره عندما قدم لنا الصورة الصادقة التالية عن ليالى الغوص :

ثم يأتى الليل من بعد الكلال
خابى الانجم مهزوز الظلال
فيرين الصمت الا من سعال
وأنين وابتهال ...

نعم ان ليل الغواص ليس طربا وعزفا انه سعال وأنين .. وان ظلال ليلة مهزوزة اذ أن حياته المجهدة المتعبة كلها مهزوزة . وهكذا ينزل الشعراء الى أغوار الحياة بتحريه الصدق والواقع لا بميله الى «اختلاق» نوع من الاجواء الطبيعية الانيقة الكاذبة ... واذا أثنينا على شاعرنا الناشىء ، فلابد ان نذكره بمقاطعه الضعيفة والرديئة ...

لقد أراد أن يصور دوران الحياة من الشباب الى الشيخوخة بذلك الغواص فقال :

ثم لفت بى ليالى العمر لفة
قد خبرت الغوص فيها باجتهادات وخفة
..الخ الخ

ان هذا المقطع كله فاشل من حيث التصوير والتعبير فالعمر لا يمر بـ «لفة» و «خفة» انها دورة حياة طويلة مؤلمة ، والواقع ان هذا المقطع أضر ببناء القصيدة ككل ..

وهناك مقاطع أخرى ينطبق عليها هذا الوصف مثل المقطع الذى مطلعه «كم بكى قلبى» ، و «شرعة البحر تريد الاقوياء» .

كما أن الخاتمة ليست فى قوة البداية والمقاطع الجيدة التى تحدثت عنها وحبذا لو أن الشاعر أجهد نفسه فى اخراجها قوية مؤثرة .

وعلى كل حال فان الشاعر الحقيقى يرتفع احيانا ويسف أحيانا أخرى وليس فى ذلك عيب . ولكن عليه أن يعرف مواطن تحليقه فيطورها ويعرف مواطن ضعفه فيعالجها ..

واعتقد ان الاخ على عبدالله خليفة لديه من الموهبة الشعرية ما يبشر بالخير وعليه أن يعطى هذه الموهبة حقها من المران والصقل وذلك باطلاع عميق موسع فى ثلاثة فروع :

١ ـ الشعر العربى القديم .
٢ ـ الشعر الحديث ممثلا فى مدرسة السياب ـ حاوى ـ عبدالصبور .
٣ ـ الفلسفة والنقد والادب عند الغربيين .

فاذا قام برحلته هذه فى العوالم الثلاثة المذكورة أمكننا أن نعلن مولد شاعر جديد عندنا فى هذه الجزر المبدعة الخيرة .

محمد جابر الانصارى